« كانت هنا شجرة»

لا أذكر أن أحداً فى البيت قد غمض له جفن ، فى زاوية قصية من بهو المنزل كانت أمى غارقة فى كى ملابسنا ، تبادل صرخاتنا الفرحة ، وقفزاتنا الجنونية بين المقاعد بابتسامة هادئة، راحت توزعها بحنان جارف على قلوبنا الراقصة ، فوقها كانت جدتى ، تحتويها إطارات مؤطرة بماء الذهب ، تفرد على صفحة وجهها الناصع ابتسامة عريضة مثل الشراع الأبيض .

قطعنا الطريق ركضاً نحو السيارة الزرقاء الكبيرة الواقفة أمام النهر ، الشقاوة والحركة بعثتا فى عروقنا دفء الخريف الصافى، كان شعره أبيض كالقطن عند فوديه ، وماخلا ذلك كان فراغاً فسيحاً، أشرق وجهه بابتسامة عذبة ، بحثنا عنها فى أنحاء السيارة ، تلجلج وهو يُحسِّن من وضع النظارة فوق جسر أنفه :

- إنها فى انتظاركم على أحر من الجمر .

زاغت عيناه ، أخفى تقاطيب وجهه فى ناحية لاتذهب إليها عين ، وضع قرصاً مستديراً تحت لسانه ، ضغط أشياء أجهلها فى دواسة السيارة ، لف المقود دورتين ثم عدله ، انطلقنا ، نام أبى على كتفه ، تدحرجت رأسه على وسادة محشوة بالهواء، اصطدمت

بزجاج النافذة ، أضحكهم الموقف ، إلاى ، لمحنى فى المرآة ، ودمعة ساخنة تنفلت من موق عيني ، تشكلت منها مجموعات ، تتقراهم يداى ، نكس رأسه بحركة مفتعلة ، فضحتها عيناى الغارقتين فى ادعاء النوم .

وصلنا الشمال بالجنوب ، انحنينا يميناً مع الطريق الدائرى المخضوضر ، تذكرت نفسى ، هنا امتطينا الحمار الأعرج ، كنا نتندر على منظره الكئيب ، ومشيته المثيرة للضحك ، طرحنى من فوق ظهره ، غمرتنى مياه المصرف الآسنة ، صَرختْ ، ضَحكتْ ، كان الطريق غاصاً بالفلاحين الطيبين السُمر الوجوه ، بتنا هدفاً لنظراتهم الفضولية ، أخذ الصبية يجرون فى أثرنا ، ويتحلقون من حولنا ، جلاليبهم البالية حُسرت عن سيقان رفيعة صفراء مثل أعواد البوص الجافة ، أعرف بعضهم ، وأحس أن الآخرين كذلك ، كانوا يخصوننى بابتسامة طينية ساذجة ، رشقت عيني فيهم ، خلفهم مساحات خضراء هائلة ، كنا نشق هذه الممرات الترابية ، نستروح النسيم العليل مع شعاعات الشمس الأولى .

كانت يدها المعروقة تتحامل على عكازها الأبنوس والأخرى تغوص تحت إبطى ، تدغدغنى ، وتطرحنى فوق البساط السندسى الممتد بلانهاية على مرمى الذاكرة ، انتبهت ، سمعتها وهى تغادر السيارة :

- ارتد معطفك الجلدى الرطوبة هنا شديدة .

راحت تستقبلنا وهى معنا ، لاتفارق مخيلتى البتة :

- أهلاً ، أهلاً .

تملأ الهشاشة والبشاشة صفحة وجهها الوردى ، انسابت الكلمات من أعماقها فى أعماقنا مباشرة ، خطت خطوة واسعة لتسبقنا إلى الباب الحديدى الكبير ، أخذت تنادى على وحسين وغازى ، خفوا إلينا مسرعين ، حملوا أمتعتنا من حقيبة السيارة الأرجوانية الصغيرة مثل الشفق ، فى نفس اللحظة التى كانت تقبلنا فيها واحداً بعد الآخر ، وكأنها لم تكن معنا ، شفتاها الناديتان لم تجفا عن وجهى بعد ، أخذنا نشب على أطراف أصابع أقدامنا ، لم نتمكن من الوصول إلى النافذة المطلة على الحديقة ، سمعنا نسغ الحياة يسرى فى ألياف الشجر ، وهسيس الأوراق بين الأغصان الباسقة ، كانت رغبة الانطلاق مشبوبة فى نفوسنا ، جاءنا صوتها الحانىّ ضاحكاً وهى تحل عقدة الإيشارب الأزرق الزهرى عن عنقها ، يتكشف الشعر الأبيض الحريرى :

- كل شئ كما تركتموه .

شجرتا النبق والتفاح البلدى بينهما أرجوحة صغيرة مجدولة من ليف النخيل، عند وسطها المرتخى وسادة قطنية ، لم تعد

زاهيـة اللـون كمـا كانـت ، رحنـا نتصـارع عليهـا ، نتقـاذف بكـرات الطـين ، شـكلتها أيدينـا بعفويـة ، تركـت المطبـخ وسـخافات الفلاحـين الأُجريـين ، بـادرت تفـض الشـجار ، علمتنـا أن كل شـئ بنظـام حتـى اللعـب !.

فـى يدهـا رقائـق مـن عيـش البتّـاو الصفـراء ، هرعنـا إليهـا ، ضحكـت ، اسـتقبلتنا جميعـاً فـى حضنهـا ، جلسـت علـى كرسـيها الخيزرانـى ، التففنـا مـن حولهـا ، ركنـا بأذرعنـا الدقيقة على حجرها، راحـت تقـص علينـا حكاياتهـا العجيبـة ، راعتنـى هيئـة شـمهورش الحرامـى ، وأعجبنـى منظـر عقلـة الإصبـع مع سـت الحسـن والجمال، كنـا مشـدودين إلـى أقصـى حـد ، تحملنـا أطيـاف ملائكيـة شـفافة ، رأينـا عوالـم لـم نرتدهـا مـن قبـل ، لـم يشـغلها «التريكو» عـن مداعبـة خصـلات شـعرنا بـين الفينـة والفينـة الأخـرى، والشـمس دافئـة تتسـلل مـن خـلال غصـون شـجرة البامبوزيـا العملاقـة، وعـم علـى العجـوز الطيـب يتقـدم منـا متسـللاً ، تعجبـه حكاويهـا ، نأخـذ مـن بـين يديـه السـمراوين ثمـار البامبوزيـا الحمـراء اللذيـذة التـى نعشـقها ، نـكاد نلتهمـا مـرة واحـدة ، تحـول كلماتهـا فـى آذاننـا دون سَـبَق أيادينـا ، نجـرى ، نلهـو ونحجـل علـى الأرض ، نـأكل المزيـد منهـا، طريـة منـداة مغسـولة بميـاه صافيـة مـن الطلمبـة ، نلتـف حولهـا مـن جديـد، معنـا عـم علـى وقـد أضـرب عـن عملـه ، يضحـك ونصـف أسـنانه غائصـة فـى المجهـول:

- اعتبرونى فى إجازة مثلكم .

نضحك ، وتضحك مثل النسمة الرقيقة .

لم ترتكز لقيمات الغذاء أو العشاء فى جوفى ، آخذها لكى أعيدها ، هيئتى الذابلة لم تكن لتسُرها أبداً ، كنت أتلوى كالثعبان فى داخلى ، الحزن ، الخوف لم يتركا منفذاً واحداً ليأتينا النوم من خلاله ، بدت العيون مقرحة ، حمراء ، تجمدت الكلمات على أطراف الشفاه ، وتحجرت على ندرتها ، زفرت أمى غاضبة ، راحت تنفث الدخان المعبق برائحة العنبر فى أرجاء الغرفة ، كانت على الطراز الشرقى القديم ، انقلب كل شئ فى الداخل وفى الخارج ، لمحت عم على الجناينى فى الحديقة ملتفاً ومن معه حول رفاتها الخشبية ، أخذت أبكى ، وأضرب الأرض برجلى ، ربت على ظهرى، كان وجهه المتغضن يفيض بالشفقة :

- لابد من اجتثاثها ، لقد فنت جذورها .

هوت من عل فى لحظة ، نظراتها الحزينة تغتال أوتار فؤادى، لم أغن كعادتى عندما أراها ، أتانى صوتها ضاحكاً وكأنما من عالم آخر بعيد ، يواسينى ، والجد عن كثب يرفع نظاراته الطبية عن عينيه الدامعتين ، ويقلبها لأعلى ويمط شفتيه للأمام ليبدو كهيئة القراقوز المضحك ، بكيت ، وأمى تشدنى بعيداً لئلا أذهب معهم ، صرخت :

- لست طفلاً .

أصبح الجسدان جسداً ، استوحشت عيناى ظلمة المكان ، الكلوبات فى أيدينا ترتعش وكأن وقودها من وجيب قلبى الخفقان، انصرفنا بعد أن أهالوا السواد على أجسادهم ، تفرقنا .

اهتزت بنا السيارة بشدة ، كانت يداه الصغيرتان تجذبان شاربى لأسفل ، أخذنى الألم من ألم الزمن البعيد ، نهرته ، عنفتنى كذلك فى التو واللحظة وهى تتناوله منى ضاحكة ، شق صوتها الحانى سكون الليل المختلج بصوت الموتور الدائر :

- خذ شعرى الأبيض واعبث به كما يحلو لك .

ضحكنا ، وفى عقل كل منا شجرة البامبوزيا العملاقة .

●●●